قصة البدو قبل الاسلام

بقلم الاب لامنس اليسوعي

سكان جزيرة العرب الى فئتين : البدو او الرعاة الرحل ؛ والحضر ، وهم ، في اكثريتهم ، من البدو الذين استوطنوا المدن والقرى فتحضّروا . وليس من فرق بين الفئتين في ما خصّ اللغة والعادات والديانة ، فكلها واحدة سواء في ذلك البدو والحضر . ويقيم هؤلاء في مناطق خصّتها السماء ببعض الخصب الدائم ، فميزتها عن سائر مناطق الجزيرة ، فألفت ما ندعوه اليوم « بالواحات » ؛ ومنها اماكن قليلة يزدحم فيها السكان حتى يمكننا تسميتها « بالمدن » كالمدينة او يثرب ، ومكة ، والطائف . اما مدينة جدّة ومرفأها (وهي تعدّ اليوم نحو ٣٠,٠٠٠) فلا ترقى الى زمن الهجرة .

كان البدو في الجاهلية يؤلفون الاكثرية الساحقة من السكّان ، كما لا يزالون حتى عصرنا على التقريب ، فيعادلون ٨٣ ٪ من المجموع العام . وهم الذين قبلوا من حضَر الحجاز ، دون حماسة ولا اندفاع ، شريعة الاسلام . فوجب عليهم ان يمدّوا برجالهم الجيوش المسيّرة للفتح العربي ، الى ان اتسعت الفتوحات وأجبرت الشعوب المغلوبة من سوريين ، وفرس ، واتراك ، وبربر ، على الحلول محل البدو في الصفوف المحاربة . فيهمنا اذًا امر البدو لانهم كانوا المادة الاولى في جيوش الفتح ، وخصوصاً لانهم حفظوا حفظاً تاماً ، المثال والخلق المختصّين بالشعب العربي . ولا يمكننا القول نفسه عن حضر الحجاز . لانهم ، على رغم ما كان يجدّد عناصرهم من البدو الطارئين عليهم من الصحراء ، كانوا لا يخلون من

التأثر بالمؤثرات الاجنبية ، بل كان يتسرّب الى عروق الكثير منهم دم غير عربي تظهر آثاره بما لا سبيل الى انكاره . فكانت الطائف قريبة الى اليمن . اما مكة فكانت قد اصبحت وسطاً متعدّد المظاهر لا صبغة حجازية له ، يؤمه تجار الخارج ، ويقصده النخاسون بعبيدهم خصوصاً من بلاد افريقية . وكان في مكة طارئة من الاحباش . واما المدينة فكانت نصف يهودية ، وقد احتلّ ابناء اسرائيل اكثر واحاتها ان لم نقل كلها . هذا ولم يكن شيء من هذه المؤثرات الخارجية يفعل في البدو ، وقد حتّم قفارهم من الاجانب ، ومنهم انفرادهم عن تسرّب العادات الغريبة .

وصف العرب

ما هي صفة العربي ؟

ونحن اذا قلنا « العربي » و « العرب » نقصد البدو وحدهم ، لا سكان ما جاور الجزيرة العربية من المناطق كسورية ومصر والعراق ، تلك الشعوب التي نجح فاتحو العرب في اجبارها على التكلم بلغتهم ، ولكنهم لم يمرّيوها الّا سطحياً .

واذًا ما هي صفة البدوي العربي ؟

وكيف دُفع ذاك الشعب ، الذي كاد يكون مجهولًا في العالم القديم حتى قبيل الهجرة ، الى الدخول في مجرى الحوادث العظيمة وتمثيل ذاك الدور المهمّ على مسرح التاريخ ؟

قال رينان : « ليس من خطأ اعظم من ان نتصوّر العرب قبل الاسلام امة جلفة ، جاهلة ، مأخوذة بالخرافات . » وقوله على صواب . فان العرب شعب متفتّح الذهن لقبول المعارف على اختلاف انواعها . حتى ان من يصادف البدوي لاول مرة ، يرى فيه ، على رغم مظاهره الجافية ، صفات متعدّدة تميّزه عن افراد القبائل المتأخرة ، او الاقوام البربرية . وان يكن للصحراء المقفرة من فضل فهو ظاهر في خلق البدوي واشهر صفاته الخُلقية . وهذا امر جدير بالانتباه . فان الصحراء بتناخها الشديد ، واحوال معيشتها الصعبة ، والمشاقّ العديدة التي

تحتلها سكانها ، وبيئتها القاسية ، تقتل دون شفقة كل طفل ضعيف البنية بل كل فرد لا يقوى على مقاومة تلك العناصر ، فتنتج شعباً متحفزاً ، يمثله البدوي بما يبدو فيه من هيئة العزم ، ومظهر الرجولية.

اضف الى ذلك الموافقة والدقة في اجوبته الصريحة المسكتة ، والسهولة اللائقة التي يتصف بها اذ يستقبل اضيافه،فلا يتردد ولا يتلعثم...يتأمل الباحث هذه الصفات فيشعر بشيء من جلال الصحراء يجلبب ذاك البدوي الظاهر بمظهر حفيد شيوخ الاقدمين المذكورة مآثرهم في العهد القديم.يعزز ذلك كل شيء في مظاهر البدوي حتى تلك الثياب الخلقة المؤثرة ، وتلك الشمائل الدالة على الرزانة والجلال ، وتلك التعابير الحكمية.وقسمات وجهه الجامعة بين التحفز والهدوء المتقطعة بغضون كأنها من آثار نار محرقة . . . هذا البدوي ، اذا نُقل الى بيئة اوفر مرافق من بيئته الصحراوية ، يستطيع بسرعة ان يتمثل كل ما تفاخر به من رقي وتقدم ، وكل ما تمتاز به المدنيات العصرية من مظاهر واختراعات. وهو ما حدث للشعب العربي ، آخر من ظهر من الشعوب الشرقية على مسرح الثقافة. واننا نذكر ، بطريق العرض ، الامبراطور الروماني فيليبوس العربي ، من عرب سورية في حوران ، وزينوبيا الزباء ، وما تُرك من آثار البدو في تدمر وصُلع (بترا).

اللغة العربية والشعر العربي

منذ القرن السادس للمسيح ، نرى الشاعر يحتل ، في القبائل العربية ، مركزاً سامياً الى جانب سيد القبيلة و«الكاهن» او العراف. ويُعتبر الشاعر كالكاهن متصلاً بشيطان خاص يلهمه آياته البيانية.ويحيط به جماعة من الرواة والتلاميذ ينشدون اشعاره حتى يصبحوا بدورهم من الشعراء . ينتج مما تقدم انه كان للبدوي، من ذاك الحين ، لغته الوطنية يستعملها آلة مرنة في التعبير عن الموضوعات الادبية . وكانت تلك اللغة جديرة بان تُصبح يوماً ما آلة للتعبير عن العلوم المختلفة . وفعلاً فانها اصبحت كذلك في بغداد على عهد العباسيين.

ومن صفات ذاك البدوي الأمي انه كان يحب الشعر حباً فائقاً ويستعمله

ملتهباً وناظماً . ولم يكن ليحتكره دون النساء ، فقد حفظت لنا تواريخ الادب اسماء عدد وافر من الشواعر جارى بعضهنّ اشهر الشعراء . اما ميزة ذاك الشعر الجاهلي ، فاننا اذا درسنا الآثار القديمة التي وصلت الينا عن طريق تقليد ادبي لم يصادف من النقد الا القليل ، والتي ترقى في مجموعها الى مائة سنة قبل الهجرة ، والتي حُرّر بعضها دون شك في العصر العباسي الاول ، نتحقق ان الشعر الجاهلي ذو صناعة نظمية راقية ، وذو ابحر عروضية متنوعة . على انه يظهر مركزاً في قالب لا يتنوّع ، محصوراً ضمن اطارات صلبة شديدة تضغط على الالهام الشخصي فتكاد تخنقه . وفي ما عدا ذلك ، فالشعر العربي يبدو غنياً بالتعابير الحكمية ، طافحاً بمظاهر العزم وعوامل الاهواء ، اكثر منه جامعاً للافكار والمعاني . وهو على قسط وافر من التصوير الحي والفة الايقاع ، ومن التعابير الجامعة المتنوعة خصوصاً . على انه فقير ، في مجمله ، بوصف العواطف الرقيقة ، وباستعمال الصور المبتكرة المثيرة للافكار والمعاني ، وخصوصاً بالاشارة الى الآثار الدينية والاخلاقية . فكأن الشعراء يخلون كل ذلك جانباً ، او كأن القالب الشعري التقليدي لا يتسع لمثل هذه الامور . حتى ان الجاحظ لا يرى شيئاً ، في ذاك الشعر ، مما لم يُستعمل في الآداب الاجنبية .

وعلى الجملة نرى الشعر العربي يعنو للمقاطع الخطابية حتى لا يكاد يثير الشعور الرقيق ولا يدفع السامع والمطالع الى التأملات العميقة والتذكارات الشائقة . فهو يكتفي بتصوير الحياة الخارجية التي يتقلب فيها البدو ، على فقرها بالمرافق المختلفة والمظاهر المتنوّعة . فيصوّرها الشعر تصويراً عجيباً بدقته ، وشدة تحقيقه ، ووحدة سياقه على طريقة قد تصبح مملّة مضجرة كوحدة الصحراء ، وكوحدة القافية الاجبارية في القصيدة مهما بلغ طولها . والبدوي الشاعر يجتهد في ان يُثير ، باستعمال الكلمات الوضيعة ورصفها ، ما تثيره اشكال الموصوفات والوانها . وهذا ما يجعل لذاك الشعر صفة خاصة تمنعه من ان يحتمل الترجمة الى لغة عصرية ، واذا تُرجم فقد خسر الكثير من ميزاته ان لم نقل كلها .

على انه كان من المنتظر ان ينجح البدوي في فنّ آخر من الفنون الادبية .

فان لغته الموسيقية ، ودقة ملاحظاته ، مع ما فُطر عليه من شدة الاهواء ، وحب الاستقلال حتى الفوضى ، اناله الصفات المهمة ، بل الشروط الاساسية للخطابة. ولكن التنظيم الاجتماعي والسياسي الضعيف في العصر الجاهلي لم يكن ليوجد له المجال المتسع لتطبيق هذه الشروط . اما في الاسلام ، فان استبداد العباسيين كان يقتل كل فكرة استقلالية ، فيخنق في المهد كل نزعة الى الخطابة العالية.

هذا واذا اعتبرنا ان اللغة تنمّ عن نفس الشعب ، وروح الامة ، فنستنتج من تقدم اللغة العربية اذ ذاك وتطوّرها نحو الكمال ما يمنعنا من وضع العرب الجاهليين موضع الاقوام الهمجية والشعوب المتأخرة في الرقي والتقدم.

اخلاق العرب

هذا ما خصّ المزايا الادبية . اما صفات العرب الخلقية فيحتاج حكمنا فيها الى شيء من التحفظ ، لانها لم تكن على مستوى واحد والصفات الادبية. وان حبّ الحقيقة والانصاف يدفعنا الى الخفض من حماسة بعض الاوربيين من الذين تحملهم الرغبة في كل عجيب غريب ، ويحدو بهم الميل الى موضوعات الاعجاب والاستغراب ، فينـدفعون في تصوير البدوي جامعاً لمكارم الاخلاق ، ومحاسن الشمائل ، ممثلاً في شخصه شروط الكمال البشري لا اكثر ولا اقل فيسيئون الى الحقيقة ويضلّون طلابها . فنرى من واجبنا اذاً ان نُنعم النظر في الموضوع فنقوّم ما اعوجّ من تلك الاحكام، ونتنقد تلك الصورة الخلّابة التي صوّر بها بعض المستشرقين البدوي الجاهلي ، فرفعوا الى منطقة المثال الاعلى من يمثل افضل تمثيل العنصر البشري المادي بما فيه من قوة اناتية ، وعمل دائب على تحقيق رغباته الارضية . فقال رنان مثلاً : « اني لا اعرف هل يشتمل تاريخ المدنية القديمة على مشهد الطف ؛ واحبّ ، واوفر حياة ، من مشهد الحياة العربية قبل الاسلام ، كما تظهر لنا خصوصاً بهذا المثال الجدير بالاعجاب ، الا وهو عنتر.» وقد جاء تين على اثر لامرتين ، فشبّه عنتر باشهر ابطال الاقدمين. اما عذر رينان ففي اطلاعه السطحي على الآداب العربية . واما لامرتين وتين

وغونستاف لوبون فكانوا يجهلون حتى الانجدية العربية . ولم يهتم رينان ، في تسرعه وميله الى التوسيع اللفظي ، بالبحث عما تتضمنه من حقيقة تاريخية اساطير عنتر وحاتم طيّ ومجمل الحوادث القصصية في « ايام العرب » التي كان يخترع اكثرها قصاصو بغداد والكوفة ليمجدوا اجدادهم من قدماء البدو .

واننا نرى صفة واحدة تتفرع عنها جميع نقائص البدوي وتلخص ، كل ما كان ينقص ذاك الرجل من المزايا الخلقية ، الا وهي صفة الفردية . البدوي رجل فردي (*individualiste*) ولهذا لم يرتقِ قط الى مستوى « الحيوان الاجتماعي » فيؤلف نظاماً سياسياً واجتماعياً ثابتاً . وقد لاحظ هذا الامر المفكر ابن خلدون ، فشرحه في صفحات من مقدمته ، لا تقوى عليها كرور الايام ؛ مبيناً في فصوله الخالدة « ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك » « وان العرب اذا تغلبوا على اوطان عامرة اسرع اليها الخراب . » هذا وتاريخ الخلافة ظاهر واضح ، وهو كفيل بتبيان هذه الحقيقة . بدأت حركة الفتح العربي فافادت البدو بان نزعتهم من بيئتهم المملة المظاهر ، فصرفتهم عن تأثيرها الحاطّ المثبط القوى . فاندفعوا الى الغزو والاكتساح . ولكنهم لم يشتركوا بشيء في تنظيم الدولة العربية ، وانالة الخلافة ما ساعدها في حياتها ودوامها . فقام السوريون بتنظيم الخلافة الاموية ، كما اشتغل الفرس بتأييد الخلافة العباسية . فدامت الدولة على رغم ما ظهر فيها من الشغب والخروج على السلطة ، مدة طويلة ، بفضل هؤلاء الاجانب .

هذا وان تلك الصفة « الفردية » وحدها تشرح ما نراه في البدوي من عدم الاخلاص للمصلحة العامة المشتركة . بل من جهل بهذه المصلحة العامة ، وما تتحققه في خُلقه من خلوّه من عواطف الشفقة والرحمة ، بل من عواطف الانسانية . . . وفضلاً عما في فطرته من النزعات الفردية ، فان طبيعة الصحراء الخشنة ، وحياتها الشظفة ، تزيد هذه النزعات قوة واستحكاماً . فتدفعه الى المعيشة المنزلة منفرداً باعضاء اسرته ، يغالب جيرانه على ماء البئر النزر ، وعلى عشب المرعى الضئيل ، باذلاً جهده في تحقيق حياة ماشيته المتعلقة بها حياته وحياة اهله .

يتصف البدوي بنقائص الفطرة الفردية جميعها ، كما انه يتحلى بفضائلها

القليلة المضطربة المتقلقلة التحديد وهي : الثقة بالنفس ، والعزم القاطع الجازم ، والانانية الشديدة ، وشدة النهم واشتهاء مال الغريب . على ان هذه الصفات التي كانت تدفع البدوي الى الاتكال على نفسه وجدها في تلك العزلة الموحشة ، والى الاستخراج من قواه الفردية كل ما يُمكن ان يُستخرج منها ، منعته من نقيصتين مهمتين في اخلاق الشعوب والافراد ، الا وهما : الكسل او التواكل ، والهوان او التذلل .

الضيافة

قلنا عن البدوي انه انانيّ ، لا يمكنه التجرّد عن المصلحة الفردية ، بعيد عن عواطف حب الغريب والتضحية بالنفس . ولكنه ليس بالقاسي الجافي الاخلاق . فانه يبعد البعد كله ، بل تمنعه فطرته ، عن سفك الدماء ، لا اجابةً لداعي عواطفه الرقيقة ، بل لانه يخاف نتائج القتل الوخيمة كما قرّرتها تلك الشريعة العائلة ، شريعة « الثار » التي لا مردّ لاحكامها ، والتي كان يعتبرها البدوي اقدس انظمة القفر ، بل ديانةً بنفسها على ما تفرضه من واجبات صعبة قاسية لم يكن يمرّ بخاطر الموتور ، أيًّا كان ، بان يتخلص منها . والموتور الواجب عليه طلب الثار كان اقرب الناس الى القتيل . اما اذا امكن البدوي تجنّب اهراق الدماء ، فلم يكن ليتأخر عن سلب الغريب ، ولاسيما ان كان هذا مسافرًا لا جوار له يلتجئ اليه ، ولا ولاء يمتّ به الى احد من افراد قبيلة المعتدي . يفعل البدوي ذلك فلا يستشعر ندماً ولا يؤخذ بشفقة . فان مال الغريب ، وان عربياً ، اذا لم يدفع عنه « جارٌ » من اهل القبيلة ، مالٌ مستباغ لا ربَّ له ، بل هو « مال الله » ، كما كان يُقال ، اي عرضة لسلب من فاق غيره بالحذق والاحتيال او بالقوة والبطش . ولا تولّد السرقة العار الا اذا كان ضحيتها رجلًا من اهل القبيلة ، او من جيرانها ، او من مواليها . اما من تبقّى من الناس فعليهم باليقظة والحذر . وهكذا يبرّر البدوي نظرية الغزو وما تنطبق عليه من اعمال السلب والنهب

وفي الاعوام المخصبة ، اذا ماهطلت الامطار غزيرة ، فآنست وحشة البدوي ، وضخمت اثداء قطعانه ، ظهر سليل اسماعيل بمظهر جدّه الشيخ ابراهيم من

الكرم وحب الضيف . فتحول الى سيد شريف يقوم بواجبات الضيافة على غاية من الحفاوة واللطف . ولاسيما ان كان في جواره شاعر يطبق انحاء البلاد العربية بذكر افضاله ونعمه . فيقوم الشاعر اذ ذاك بمهمة الصحافي في عصرنا ، فيقيد الرأي العام بما ينشره ويتناقله الرواة . والبدوي شديد الحس بجمال الشعر وافر التأثر بالثناء ، يعترف بان الشهرة الجديرة بان تُشترى بالذهب .

الشجاعة

من الاحكام الجارية ان البدوي شجاع وكثير الشجاعة ، حتى ان بعض المدققين من علماء اوربة بلغوا بذلك ان نسبوا نجاح الفتوحات الاسلامية الى قيمة البدوي وشجاعته الخارقة العادة . وهو رأي نتردد في النزول عنده ، بل نميل فيه الى كثير من التحفظ . وان من درس بدقة مغازي محمد ، ومعالم حياته الحربية ، يرى اسباب تحفظنا هذا . فلم يكن صاحب الشريعة الاسلامية نفسه ليخدع بمظاهر البدو ولا ليغش عن قيمتهم الحقيقية ، يتضح ذلك لمن يطالع القرآن (٢ : ٢١٢ ؛ ٤ : ٧٩ و٨٦) .. والبدوي ينفر — ولاسيما بعد اختراع الاسلحة النارية — من القتال الا وراء متراس او ملجأ ايا كان . وحيثما نضع نحن الشجاعة الحقيقية ، يرى هو تهوراً لا معنى له ولا فائدة . وهو لا يستعمل من انواع الحرب الا الغزو ، هذا ان امكننا ان نعد الغزو من انواع الحرب . ثم انه في سعيه وراء مادة الحياة ، وقتاله في سبيلها ، يجعل للاحتيال النصيب الاوفى على نحو القول : « الحرب خدعة » . فهو يفضل مفاجأة الخصم وتبييته متشبهاً ، في ذلك ، بالوحوش المفترسة الآهلة بها فيافي بلاده . اما الفرار فيعده البدوي من خطط الحرب . واخيراً نلفت النظر الى امر مهم في ما خص فهم البدوي للشجاعة ، وهو ان البدوي لم يكن ليقدر فضل الشجاعة المغفلة ، شجاعة الجندي المجهول الذي يحارب في الجيش دون ان ينشر احد اسمه ، او يسقط في الخندق دون ان يطبل الشعراء بذكره فيذهب ضحية مجهولة من ضحايا الواجب والشرف . فهذه القيمة الفردية المغفلة لا يقدرها العرب ولا يفهمونها ، وهي ملاحظة مهمة تساعدنا في تحديد « شجاعة » العرب . ويساعدنا على ذلك ايضاً ما نتحققه في عاداتهم الحربية . فانه بينا

يكون النساء نادبات على قبور الموتى، مردّدات: «لا تبعد ايها الخيال الكريم.» ترى الرجال قليلي الحماسة تجاه هذا الرثاء، تلخص عواطفهم بما ردّده كثير من الشعراء. وممناه: «يا للتعزية النافعة! وهل يردّني الى الحياة بكاء النساء وندب النادبات.» وهي اقوال علينا ان نتدبّرها ملياً، اذا اردنا ان نفهم، حقّ الفهم، عقلية العرب في هذا الموضوع.

الصبر

على ان اشهر فضيلة يتصف بها البدوي، وهي ايضاً من نتائج فطرته الفردية، هي الصبر. واننا لنخطئ اذا توهمنا الصبر كما نفهمه بالمعنى العصري، اي صفة سلبية تدفع صاحبها الى التوقف عن رغبة من الرغبات. فان الصبر، عند العرب، صفة ايجابية تفرض تجلّداً شديداً وقوة ارادة مستديمة. بهذا المعنى ترى اللفظة في اللغة القديمة، وبهذا المعنى تظهر لمن تصفّح القرآن (٣: ١٤٠؛ ٨: ٦٦) وهي فضيلة المقاتل في الجهاد، وهي تجلّد دائم بل عراك متواصل لمقاومة الطبيعة المعادية، والانتصار على العناصر المتناوئة، والتحفظ من وحوش القفار، بل من الاعراب انفسهم، وهم اعظم خطراً من الذئاب والضباع على ماشية البدوي المكوّنة ثروته الوحيدة. وكان من فضيلة الصبر هذه ان اكتسب البدوي خلقاً صلباً كالفولاذ، ولكنه مرن لين يقوى على مقاومة العقبات فتمكن من الرخاء، فضلاً عن الحياة، تحت سماء صاهرة وفي بيئة يضمحل فيها كل شيء ما عدا البدوي والجمل، رفيقه الامين ومركبه في القفار.

في تلك الاجسام الظاهرة الاحناء، البارزة العظام، التي لا يفتأ يلفحها الهواء الجافّ القاسي، ولا تنفكّ تحرقها الشمس باشعتها اللاذعة، تنفذ الاحساسات سريعة شديدة كوثوب الحراب. فتدفع البدوي الى ما يمتاز به من الحماسة الفجائية، وبوادر الغضب، ومظاهر الرغبات والشهوات التي لا حدّ لها.

التعرّض

جاء في سفر التكوين (١٦: ١٢) في وصف اسماعيل، جدّ العرب: «ويكون رجلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه، واما مام جميع اخوته ينصب

مضربه .» هكذا كان اسميل : وهكذا يظهر لنا حفيده البدوي في عزلته وانفراده،لا يخطو قيد شعرة عن صفة جدّه. ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا ، ولن يزال في صحرائه التي ان تزال منطقة حرب الجميع للجميع . وما ذاك الا لانه عاجز عن ان يرتفع ، بنفسه ، الى ما فوق فكرة الحيّ او القبيلة . عاجز عن ان يتصوّر نظاماً اجتماعياً اوسع وارقى . واذا ارتفع الى شيء من ذلك بمساعدة قوة خارجية ، فلا يلبث ان يرجع الى نقائصه وتشقباته ، عندما تتركه تلك القوة الخارجية .وسواء كانت هذه القوة نبوغاً سياسياً كنبوغ معاوية الاول، او حزماً ادارياً كحزم زياد ابن ابيه والحجّاج وغيرهما. فيعود البدوي القهقرى الى فطرته الفوضوية.

سيد القبيلة

لقد قيل عن بعض دعاة الديمقراطية العصرية من المتحزّبين لثوران الشعب « انهم يرضون بالّا يكون احدٌ فوقهم، ولكنهم لا يرضون بالّا يكونوا فوق غيرهم .» وهي صفة ما اشدّها انطباقاً على البدوي . كان رئيس القبيلة يلقب في ما مضى « بالسيد » . اما اليوم فقد أُبدل به لقب « الشيخ » لان الاول اختصّ بالدلالة على ذرّية الحسين بن علي بن ابي طالب ، حفيد محمد.

وقد سأل الخليفة معاوية يوماً احد اسياد البدو عن الشروط التي يتطلبها القوم في الصحراء من سيدهم فاجاب بقول يجدر بنا ان نُنعم النظر فيه ، وخلاصته: على السيد ان يجعل بيته مفتوحاً للضيافة ، وحديثه لطيفاً ، ولا يتطلب شيئاً ، بل يرحب بالكبير والصغير فيمدّهم جميعاً من امثاله . وهي صفات تفرض التجرّد والتضحية الدائمة . وقد جمعتها حكمة العامة في امثالها فقالت :« سيد القوم اشقاهم » وقالت ايضاً : « سيد القوم خادمهم .»

اما تعيين « السيد » فتعلق بارادة القبيلة الحرّة ، تختار لذلك المقام من تراه لائقاً به ، ناظرةً الى القوانين التقليدية في صفات السيد . ومن ذلك ان السلطة كانت تنتقل « كابراً عن كابر » .واذا فاول شروط السؤدد العمر الكامل المزيّن باختبارات عديدة في احوال الحياة . هذا لان اولئك البدو الديموقراطيين في

كبريائهم ، لم يكونوا ليخلصوا من بعض الادعاءات الارستوقراطية . فكانوا لا يطيقون ان يخضعوا لاوامر شاب لم يحنكه الدهر مهما كانت مقدرته وفضائله . ولنا في لفظة « شيخ » دليل على نفورهم من تولية الاحداث . وقد جرّهم هذا الامر الى النفور من مبدأ الوراثة الدولية ، فانهم كانوا يرفضون كل الرفض ان يتقيدوا بالطاعة تجاه اسرة مسوّدة مهما كان من فضائل السيد المتوفى ، ومهما كانت مزايا ابنائه . وعليه فان السيادة كانت تنتقل من الرجل الى اخيه ، او من العم الى ابن اخيه ، بل كثيراً ما كانت تمرّ من حي الى حي ، او من قبيلة الى قبيلة . حتى اصبح من النوادر المستحقة الذكر ان تعدّ اسماء من نالوا السيادة متسلسلة عن آبائهم فجدودهم . اما سيادة الفنانين واللخميين فهي من الامور الشاذة التي فرضها على العرب البيزنطيون والفرس . ولم يكن البدو الخلصاء ليرضوا بهذا الامر . فان انتقال السلطة بطريقة نظامية من الاب الى ابنه ، او ما يعرف بالملكية الوراثية التي أسسها الامويون ، كانت تغضب العرب في كل آن فيثورون على الظلم والاستبداد . ومن هنا يتضح لم كان ذاك الشعب بعيداً عن قبول العادات السياسية المعقولة التي تقرّر السلطة المنظمة ، فتخفف وطأة النزعات الفردية ، وتضبط الغرائز الفوضوية .